

بين يدي المازني

أنشد أحد الشعراء قصيدة أمام أبي العلاء المعري ، وهو بالشام ، فقال له : أنت أشعر من بالشام ، ثم قابله مرة أخرى بعد عام في بغداد - إبان رحلة المعري إليها - وأنشده قصيدة جديدة ، فقال له : ومنَ بالعراق .

هذه «الواو» العاطفة لمطلق الجمع عند النحاة ، لكن العطف جاء بعد حول كامل ، فهل يطبق سادتنا النحاة هذا الفاصل الزمني والمكاني ؟ لعلهم يطبقونه ، ولهم سند من إمام في العربية في قامة شيخ المعرة .

خطر في بالي هذا الهاجس أمام المازني الشاعر ؛ إذ مرت سنوات طوال تقلبت فيها أطوار الفكر والنظر والإبداع ، وهذه «الواو» لاتزايلى منذ نظرت باحثاً في شعر المازني ؛ حيث اهتديت إلى معدن شاعريته ، وداخلته فيما هو باق منها ، - وقد بقي كثير - ، وكل ما زاد بعد ذلك إنما كان على شيء وضعت يدي عليه منذ ذلك الإبان البعيد ، تزيده الأيام رسوخاً وتمكناً ، وتفصيلاً لمجمل ، وإيضاحاً لمشكل ، خاصة حين درست شعر المازني مع طلابي ، ولهم نظر يشاكة أو يناقض رؤيتي ، غير أن هذا النظر كان عسياً - ولايزال - أن أراجع ، وأن أقف على أشياء ندين بها معاً للحوار الحي والحر دون وصاية .

لقد عرفت المازني الناثر كاتب مقال ، وروائياً ، وصاحب صور قلمية ، قبل معرفتي به شاعراً ، لأنها تأخرت حتى سنة صدور ديوانه المجموع ١٩٦١ ، طبعة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، لكن هذه المعرفة - وإن تأخرت - كانت تشي بها كتاباته الثرية ؛ لأن الشاعرية سرت في أعراقها ، ولأنها - في الوقت ذاته - إفضاء وبث من الكاتب إلى القارئ ، وهل الشعر - في جوهره - إلا إفضاء وبث ، مع القدرة الصياغية الغذة التي لاتزايلى المازني على الإطلاق ، وهذه القدرة لم يبرزها إلا نفر قليل ، المازني في صدارتهم .

كان الأستاذ العقاد - فيما كتبه عن صديقه - وفيما كان يحدث به مريديه في

ندوته كثير الثناء على صاحبه معللاً ومحللاً ، سواء فى شعره أم فى نشره وترجماته ، وقال - فيما قال - فيما سمعته منه ، وما قرأته له بعد ذلك - : إننا لم نعد الفائزة المرجوة من ملكات المازنى ، وخاصة فى الترجمة التى نعتها «بالعبقرية» ، ومن ثم جاء اهتمامى - والاهتمام يعدى- بصديق شيخنا الأكبر العقاد ، واتخذت من المازنى شيخاً أيضاً ، لكن الفارق بينهما بالنسبة لى كان بين الأستاذية والصدافة ، مع وجودهما معاً فى نفسى ، غلبةً لجانب على جانب ، كان الكفل يميل إلى الأستاذية مع العقاد ، والصدافة - وإن لم أر صديقى المازنى - مع صنوه ، وربما كان جانب السخرية ، وخلع العذار أحياناً - مع الحفاظ على التوقير - يجذبى للمازنى ، كذاك - فيما يتصل بالأداء الشعرى - فيما بعد . .

بالنسبة لى ، كنت - ولا أزال - أفضل المازنى فى كثير من المواطن ، وربما كان هذا لقراءة الشريف وجزالته ، وهى تعدى من يلزم الشاعر العباسى العظيم ، على حين كان التأمل ، والاستغراق ، والتهجم على الفكرة ديدن العقاد شأنه فى ذلك شأن ابن الرومى ، والمتنبى والمعرى ، وإخوان هذا الطراز ، وأعتقد أننى قبست من هاتين النارين شاعراً وناثراً ، وإن كانت «الدرعية» التى نعت بها العقاد أبناء دار العلوم - وعلى رأسهم على بك الجارم - وراء طربى لصياغة المازنى فى جملتها ، ولصياغة العقاد فى كثير مما كتب ، وخاصة فى نثره الذى كتبه فى مستهل حياته ، بتلك الجزالة والفحولة التى ماعتم أن مال عنها فى أخريات أيامه حين كتب يوميات الأخبار ، وقبلها بقليل ، ويشاطره فى هذا صنوه المازنى ، الذى كانت سمة الفحولة فى الصياغة بائنة ، وفائقة فوقاً شديداً ، ترى هل استعاض عنها بتلك البسمة الساخرة الحزينة حين خاطب جمهوراً لا يحتفل الحفل الواجب بالصياغة ؟ .

ويعجب قارىء المازنى الشاعر لهذا الفيض الهائل من القنوط المساور والحزن الممض اللاعج ، على حين كانت حياته - كما يبين من كتاباته النثرية ، وكما استظهر بعض أصدقائه مثل العقاد وعلى أدهم - مليئة بالابتسام ، والسخرية ، وكأنه كان يلبس شية خاصة حين يفزع للنظم ، فلا تكاد شفتاه تبضان بطيف ابتسامه إلا فيما ترجمه عن هاينى الشاعر الألمانى ، حتى فى قصيدته «الموسيان»

عن «محمد» ولده - عرفته وسعدت بصحبته سنوات، مستحضراً صورة أبيه فيه - وابن أخت صديقه العقاد «عزوز» رداً على قصيدة العقاد إلى صاحبه ، كان المأمول وهو يتحدث حديث الإخوان أو الإخوانيات ، وعن ولدين لا يزالان في المهدي ، وفيهما - فيما يتوقع الآباء والأخوال - مخايل نجابة تتمنى ، لم يتخل المازني عن إهابه الحزين ، ونظر إلى المستقبل في قنوط وريبة - على غير ما رأى العقاد الذي كان ساخرًا مبتسمًا ، وودَّ المازني ألا يجيش الشعر في صدر وليده :

لكنما أشفق يا صاحبي من أن يجيش الشعر في صدره .

كان هذا أيضاً شأن حافظ بك إبراهيم ، الذي يملأ المجالس «بقفشاته» ونوادره حتى إذا فرع للشعر لا ترى إلا دمعاً جائشاً ، وأسى حافزاً ، وربما كان هذا ديدن الشعراء ؛ لأن القصيدة تحاول أن تسد الثلمة بين الواقع والمأمول ، ومن ثم كان الحزن النسيج البائن في الشعر ، ولا يظعن في ذلك سخرية بعضهم فيما يكتبون ؛ لأن السخرية أو البسمة الساخرة غلاف يشف عما تحته من وجد مضطرم . لعل هذا التفسير يضيء - ولو قليلاً - دجية أحزان المازني الشاعر الذي اصطلحت عليه اللأواء والعلل والأوصاب العامة والخاصة - كما يضح في ثنايا الكتاب ، ولا مغمز في صدق المازني حين يسخر - حتى من نفسه في مواقف تعز فيها السخرية ، وحين يحزن ؛ لأن كل حالة يقتضيها المقام ، ونود الإشارة هنا إلى موقف واحد وهو يرثى بنته ، مصوراً إياها تدخل عليه في أثناء الكتابة ، معايشة عبث الطفولة - ولاندرى من الطفل منهما - فيصفها وهي تعض أذنيه «الطويلتين» ، تلك لفتة إنسانية ساخرة وحزينة لاتساور غير خيال المازني ، الذي يلتقط فتات الأشياء ، ويوظفها في خدمة مايقول وكيف يقول .

واني لأعود إلى شعره - وهل تركته لأعود إليه؟ - فأرجع إلى شقيق - رغم مجاهل الزمن - أجاذبه الودادة منخولة ، والإعجاب مصفى ؛ لأن الصدق يسرى في نواياه التي أجوس فيها قبل أن يخطها على الورق ، وليس نثره ببعيد عنى في تلك الخلة ، لأنه منذور لمعبد الشعر ، وكاتب هذه السطور أيضاً منذور مثله ، بيد أن المازني نفص يديه من الشعر على غير مايهوى صاحبنا ، حيث لا يكف عن التطريب والغناء ، وربما كان المازني وراءه يحثه على عدم الإفصاء ، والإجبال ،

ولولا أن تلك خلة وفطرة لما استجاب صاحبنا لحث المازني .

وعلى المرء الناقد أن يتخيل كيف يكون حال الشعر المعاصر لو ظل المازني يغرد حتى آخر لحظات حياته مع أسراب الشعراء في زمنه ، وهو من هداة السرب . . . نعتقد يقيناً أن الشعر كان يستقيم ظله ؛ نظراً لاستقامة العود وعدم اعوجاجه ، حيث يرتكن إلى نظام وقاعدة ، على غير الخيم السائد الآن ، الذي يحاول أن يقتنص أبدة من كلام المازني المجدد في قصيدته «ليلة وصباح» ، وقصيدته «إلى ولدي محمد» في رثاء أمه ، وشعره المرسل مساوفاً بذلك النمط نمط عبدالرحمن شكرى ، وعدم مساوقة العقاد لهما في ذلك الضرب الأخير ؛ لأن الكلام المرسل «تخون» لنظام التقفية ، ودقة الرجل ، ولو درى من يتمسح بكلام المازني لارتأى أن تجديده في الشكل مما يدخل في النظام ، وفي الموشحات ندحة تسيع أكثر من هذا ، لكنها الآفة !! [راجع كتابنا : حديث الشعر ، عن الدار المصرية اللبنانية] .

وفي مقابل هذا الرأى في شعر المازني ، ثمة آراء أخرى جائرة ، أشدها اتهامه بالإغارة على شعراء العرب والعجم ، وقد عاجلنا تلك القضية في الفصل المعنون «أصالة المازني» ، لكننا وقفنا على رأى لمن يمهر كتاباته «م.ع. الأول» ولم يتمكن أ . د محمد أبو الأنوار من معرفة صاحب التوقيع - وهو حجة في تاريخ الأدب الحديث [راجع كلامه - غير مأمور- في كتابه «الحوار الأدبي حول الشعر»] ، هذا الرأى يوازن بين شاعرية المازني وشكرى وشاعرية أحمد رامى ، وهو أثير لديه ، مرتئياً أنه أحق بالريادة والزعامة من هذين السارقين ، واستمرت الموازنة أو المقارنة بتعبير الكاتب تسع مقالات ، دون أن يصل د . أبو الأنوار إلى تحديد شخصه ، والمقالات منشورة في جريدة السفور وكما يبين من اسمها نزعها إلى التجديد . .

وتتركز هذه النقذات فى «أن رامى كالبلبل يتغنى بغير صنعة فيطرب ، وأن ليس بيننا من الشباب من ينظم بالسليقة غيره» ويعلل سبب المقارنة لوحدة المشارب الثقافية ؛ حيث تخرجوا فى مدرسة العلمين العليا ثلاثهم ، ثم يتابع التفصيل فىرى أن رامى كالنحلة ينتقل من زهرة إلى زهرة ، وأنه لا يقرأ شعر القدماء ليعارضهم ، بل هو يستمد المعانى من طبعه وهى تتداعى إليه من الطبيعة ، وهو يترك نفسه على سجيتها فى القول غير مقهورة بأوزار الصنعة ، والمازنى ليست له

هذه الميزة ؛ إذ يراه يلبس معانى الشعر الإفرنجي ثياباً من الألفاظ العربية ، وجعل يرمى بجمر غيره فى رماده ليشب من ذلك ناراً ، وتكون قصيدته لاهى عربية ولاإفرنجية ، وهى فى النهاية سرقة صريحة . وانتهى إلى أن المازنى شاعر تقليد وتحذ وسرقة . وليس بشاعر طبع ؛ لأن شعره لايصدر عن عاطفة كرامى . [راجع تفصيلاً كتاب «الحوار الأدبى حول الشعر» ففيه جهد عظيم] .

والحق أن كلام هذا الناقد يجب إرجاعه إلى ملابس عصره ، سنة ١٩١٨ ، حيث كان الناس مضطربين حول مفهوم التجديد ، كما كانوا ينظرون إلى جماعة الديوان نظرة الريبة وعدم الموضوعية . . وفى السنة التى قبلها ، كان قد صدر الجزء الثانى من ديوان المازنى ١٩١٧ ، وأثار عاصفة من النقد اللاذع والاتهامات لكن (م.ع ، الأول) وجريدة السفور يثيران عجباً ؛ لأن البائن أنها مع التجديد ، ورامى فى رأينا ليس من المجددين ، بل هو امتداد للمدرسة الذائبة والنموذجية المصرية التى تنتسب - صليبية - إلى البهاء زهير ، وكل مايتوقع منهم أن يظلوا عصفير فى الأقفاص ، لأتشرئب نفوسهم إلى الأفق اللاحب ، والفضاء العريض شأن المدرسة التى أوغلت فى قراءة التراث على غمطها ، كما فتحت نوافذها إلى الأدب الإنجليزى ومايترجم إليه ، على حين كان رامى ورفصاؤه يقنعون بقراءة الأدب الفرنسى ، والفارسى ، وكلاهما يشاكة الطبيعة المصرية آنذاك ، وإذا كان الناقد يأخذ على المازنى معارضته ، فهى فى أغلبها تدور مع ابن الرومى ، وهو مازنى عصره إن صح التعبير ، وبينهما من الأواصر والوشائج مايمسح مجاهل الآباد والقرون ، فضلاً عن أن معارضة ابن الرومى نوع من التجديد ، وإن اتخذت القالب شكلاً ، حيث عبر المازنى ، ومعه العقاد عن مشاعرهما هما ، دون أن يقعا فى شرك ابن الرومى شاعرهما الأثير ، ومكتشفاه قبل أهل القديم والجديد ، لدرجة أن رجلاً كشوقى وعد بمراجعته مرة أخرى بعد كتاب العقاد عنه ومقالات المازنى المسهبة فى حصاد الهشيم .

هذا الاعوجاج النقدى يدل على أصحابه ، وعلى تمكن الغاشية التى تطمس الرؤية والنظر ، وهل يعقل - ولو خيالاً - أن يقارن شاعر مثل المازنى أو شكرى - مع رأينا فى جهامة شعره فى الأعم الأغلب - ونراه لايحكك مايقول ،

ولايعاوده بالمطاوله والمراجعة شأن المجودين المنقحين - هل يقارن مثل هذين الرجلين بشاعر هين من الخفاف مثل أحمد رامى ، وله نظراء كثيرون الآن ، وإن لم يبلغوا مبلغه من المائيه ؛ لأن زمنه كان يقتضى مراجعة لجيد المنظوم والمنثور ، على غير ما هو قائم فى زماننا الأظلع ، أحمد رامى - فى رأينا دون تجن على الإطلاق - يأتى فى ساقه شعراء عصره ، وكل مزيتة أن أم كلثوم تغنت له فصيحاً وزجلاً - ولولا هذه اليد لما كان له مثل هذا الذكر ، بخلاف المازنى وشكرى والعقاد الذين لديهم صبر على معالجة الخوالج المركبة ، والمشاعر القوية الصاعدة ، وتصوير مايعتور النفس الإنسانية من قلق وحيرة ، وتأمل إلى آخر مدى ، مثل هذه المشاعر ماكان لها أن تساور نفساً مثل نفس رامى ، حيث تقنع بالوهاد المطمئنة ، ولاتطلع إلى القلال الباذخة ، على وعورة المسالك ووحشة الدروب . .

كذلك غزل رامى - ومعظم كلامه فى الغزل - إنما هو غزل استجلاب الأنس ، فى المجالس القاهرية ، التى تقيس المشاعر وقوتها بكمية الدموع ، وتقف لدى مشهد واحد كأنه مشهد الصور المتحركة المتوقف ، على حين ترى خوالج من قرى آخر لدى جماعة الديوان ومن سلك مسلكهم ، وهل كلام رامى فى العامية «ولما أشوف حد يحبك يحلى لى أجيب سيرتك وياه» كلام رجل عاشق يغار ، وتتقلب فى نفسه مراجل الغضب ، لكنه رجل «قاهرى» من نمط خاص . . ربما كان الشاعر الساخر محمد مصطفى حمام صادقاً ومصوراً للحقيقة حين وصف رامى وكلامه بهذين البيتين :

حبيبي وجهه بنبي وأى وجوهنا بنبي
لقد كانت له دار وكانت داره جنبى

وفى ذرع القارىء أن يغض الطرف عن الرسم «الكاريكاتورى» ، ولكنه لا يغض البصر عن عبقرية الرسام ، وأن «الفطرة» التى أشار إليها «م.ع. الأول» كاتب السفور هى من قبيل تلك الفطرة الساذجة .

أليس على الناقد حين يطالع الصفحات المجهولة فى الدوريات وفى الكتب أيضاً أن يتميز بملكة تنخل الكلام ، وأن تحسن الرأى والتعليل ، وأن تقرأ الإبداع

أولاً لتمييز الخبيث من الطيب . . وألا تفرغ إلى الأقوال الشوائع التي تسير بين الناس بلا شكيم يضبطها أن تجمع ، وأن يكون الناقد بصيراً بمضايق الكلام ، وليست هناك صناعة قائمة بذاتها تسمى «صناعة النقد» إلا إذا كان صاحبها مبدعاً أولاً ، عارفاً بتصاريف الكلام ، خاصة الشعر ، أو على الأقل فيه إبداع مضمّر ، يتخفى في إهاب الناقد ، وألا يدع هذا الإبداع المضمّر يسد عليه منافذ الرؤية حسداً من عند أنفسهم ، وما أكثر هذا الصنف الآن ، الذين قعدت بهم ملكاتهم عن الإبداع الخالق ، فأووا إلى منطقة النقد وهي أشبه بمنطقة الأعراف ، أو بمن يتزوج بائنتين فيأتي وشقه مائل لعدم إقامة الميزان بينهما ، والشق المائل هنا هو الحسد القائم في النفوس حين تعجز عن الخلق ، ولا يدري شراب القوم إلا من ذاقه ، وله صرعة تمشي في العظام قبل أن تسرى في العروق ، وويل للمبدعين الشعراء من النقد وأشباه النقد ، لكنهم - أى النقاد - يدلون على أنفسهم حتى حين لا يريغون ، لكن ويل المبدعين يفشأ أواره ما يبدعونه ، والحالة التي يتولون إليها بعد الإبداع ، على غير الويل المقارن لهؤلاء النقاد المعروفين بسيماهم ، فهم يرشحون موتاً على رأى ابن أخت تأبط شراً .

وكم أصاب مثل هذا الويل صديقنا المازنى فى حياته وبعد رحيله ، وحسبك أنه لم يصدر بعد كتابنا عنه شاعراً كتاب آخر ولو كان مناقضاً ، وإن ظهرت كتب عنه أظهرها ما كتبه فاروق خورشيد وأحمد عوضين ، وأما كتاب نعمات أحمد فؤاد فقد ظهر قبل كتابنا ، وفيه «فصيل» عن شعر المازنى لكن الكتاب فى جملة هين لين ، يدل على تعثر فى الرؤية والفهم ، وكان الأستاذ العقاد - فيما سمعناه منه ومارويناه عن غيره - مدفوعاً لتقديم الكتاب مجاملة لصديقه المازنى وتوأم روحه ، وأصاب المؤلفه بعض من تلك المجاملة . .

ونحن ننتظر أن يهتم النقد المبدعون بالمازنى الشاعر ، خدمة لأنفسهم وعصرهم وأدبهم ، لا خدمة لصاحبنا الذى نفض يديه من كل الدنيا ، وترك لنا ولمن بعدنا أدباً حياً مجدداً ، سيبقى فى الذاكرة العربية ، وغير العربية أيضاً - ترجمنا مثلاً بعض قصائده إلى الإسبانية ، وتطوع صديقنا خوسيه باثكث بصياغة الترجمة شعراً إسبانياً أثار الإعجاب به - مابقى فى هذه الأمة حرف عربى يُقرأ فيمتع ، أو صوت عربى ينطق فيُسمع .

أبوهمام